

الباب الثامن والسبعون: في القضاء والقدر وأحكامه

والتوكل على الله عز وجل

اعلم أن كل ما يجري في العالم من حركة وسكون، خير وشر، ونفع وضر، وإيمان وكفر، وطاعة ومعصية، فكل بقضاء الله وقدره وكذلك فلا طائر يطير بجناحيه، ولا حيوان يدب على بطنه ورجليه، ولا تنبت بعوضة، ولا تسقط ورقة إلا بقضائه وقدره وإرادته ومشئته، كما لا يجري شيء من ذلك إلا وقد سبق علمه به. واعلم أن كل قضاء الله تعالى وقدره فهو كائن لا محالة، كما أن ما في علم الله تعالى يكون فهو كائن قريب، وما قدر الله وصول إليك بعد الطلب فهو لا يصل إليك إلا بالطلب، والطلب أيضاً من القدر، فإن تعسر شيء فبتقديره وإن اتفق شيء فبتيسيره. فمن رام أمراً^(١) من الأمور ليس الطريق في تحصيله أنه يغلث بابه عليه، ويفوض أمره لربه، ويتتظر حصول ذلك الأمر، بل الطريق أن يشرع في طلبه على الوجه الذي شرعه الله له فيه وقد ظاهر النبي ﷺ بين درعين، واتخذ خندقاً حول المدينة حين تحزبت عليه الأحزاب يحترس به من العدو، وأقام الرماة يوم أحد ليحفظوه من خالد بن الوليد وكان يلبس لأمة الحرب ويهيم الجيوش ويأمرهم وينهاهم لما فيه من مصالحهم واسترقي وأمر بالرقية، وتداوي وأمر بالمداواة، وقال: الذي أنزل الداء أنزل الدواء. فإن قيل قد روي إن النبي ﷺ قال: من استرقي أو اكتوى فهو بريء من التوكل. قلنا ليس قد قال: إغفلها وتوكل. فإن قيل فما الجمع بين ذلك، قلنا معناه من استرقي أو اكتوى متكلاً على الرقية أو الكي وأن البرء من قبلهما خاصة فهذا يخرج عن التوكل، وإنما يفعله كافر يضيف الحوادث إلى غير الله، وقد أمرنا بالكسب والتسبب ألا ترى أن الله قال لمريم عليها السلام ﴿وهزي إليك بجذع النخلة﴾^(٢) فهلا أمرها بالسكون وحمل الرطب إلى فمها وأنشدوا في ذلك:

ألم تر أن الله قال لمريم
ولو شاء أن تجنيه من غير هزها
وهزي إليك الجذع يساقط الرطب
جئتُ ولكن كل شيء له سبب

وقد تقدم هذا الشعر في باب الكسب والتسبب ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً» فلم يحمل أرزاقها إليها في أوكارها بل ألهمها. طلبها بالغدو والرواح وقد جمعوا بين الطلب والقدر فقالوا إنهما كالعديلين على ظهر الدابة إن حمل في واحد منهما أرجح مما في الآخر سقط حمله، وتعب ظهره، وثقل عليه سفره، وإن عادل بينهما سلم ظهره، ونجح سفره، وتمت بغيته. وضربوا به مثلاً عجيباً فقالوا: إن أعمى ومقعداً كانا في قرية بفقر وضر، لا قائد للأعمى، ولا حامل للمقعد وكان في القرية رجل يطعمهما قوتهما في كل يوم احتساباً بالله تعالى، فلم يزالا بنعمة إلى أن هلك ذلك الرجل فلبثا بعده أياماً، واشتد

(١) رام أمراً: طلب.

(٢) سورة: مريم، الآية: ٢٥.

جوعهما، وبلغ الضر منهما جهده، فأجمع رأيهما على أن الأعمى يحمل المقعد، فيدله المقعد على الطريق ببصره. فاشتغل الأعمى بحمل المقعد ويدور به ويرشده إلى الطريق، وأهل القرية يتصدقون عليهما فنجح أمرهما، ولولا ذلك لهلكا. فكذلك القدر سببه الطلب، والطلب سببه القدر وكل واحد منهما معين لصاحبه، ألا ترى أن من طلب الرزق والولد ثم قعد في بيته لم يظأ زوجته ولم يبذر أرضه معتمداً في ذلك على الله واثقاً به أن تلد امرأته من غير موافقة، وأن ينبت الزرع من غير بذر كان عن المعقول خارجاً ولأمر الله كارهاً، قال الغزالي: أما المعيل فلا يخرج عن حل التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبراً لضعفهم، وتسكيناً لقلوبهم وقد ادخر رسول الله ﷺ قوت سنة ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئاً. وقال: أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا. وقال عبد الله بن الفرج: أطلعت على إبراهيم بن أدهم وهو في بستان بالشام فوجدته مستلقياً على قفاه وإذا بحية في فمها باقة نرجس فما زالت تذب عنه حتى انتبه. فحسبك توكل يؤدي إلى هذا. وعن عبد الله الهروي قال: كنا مع الفضيل بن عياض على جبل أبي قبيس، فقال: لو أن رجلاً صدق في توكله على الله، ثم قال لهذا الجبل اهتر لاهتر، فوالله لقد رأيت الجبل اهتر وتحرك. فقال له الفضيل رحمه الله تعالى: لم أعنك رحمك الله فسكن.

وفي الإسرائيليات أن رجلاً احتاج إلى أن يقترض ألف دينار فجاء إلى رجل من المتمولين فسأله في ذلك، وقال له: تمهل عليّ بدينك إلى أن أسافر إلى البلد الفلاني فإنّ لي مالا آتيك به وأوفيك منه، وتكون مدة الأجل بيني وبينك كذا وكذا فقال له هذا غرر. فأنا ما أعطيك مالي إلا أن تجعل لي كفيلاً، إن لم تحضر طلبته منه. فقال الرجل: الله كفيلاً بمالك وشاهد عليّ، أن لا أغفل عن وفائك فإن رضيت فافعل. فدخل الرجل خشية الله وحمله التوكل على أن دفع المال للرجل فأخذه ومضى إلى البلد الذي ذكره. فلما قرب الأجل الذي بينه وبين صاحبه جهز المال وقصد السفر في البحر فعسر عليه وجود مركب. ومضت المدة وبعدها أيام وهو لا يجد مركباً فأغتم لذلك وأخذ الألف دينار وجعلها في خشبة وسمر عليها ثم قال: اللهم إني جعلتك كفيلاً بإيصال هذه إلى صاحبها وقد تعذر عليّ وجود مركب وعزمت على طرحها في البحر وتوكلت عليك في إيصالها إليه. ثم نقش على الخشبة رسالة إلى صاحبها بصورة الحال طرحها في البحر بيده، وأقام في البلد مدة بعد ذلك إلى أن جاءت مركب فسافر فيها إلى صاحب المال فابتدأه، وقال: أنت سيرت الألف دينار في خشبة صفتها كيت وكيت، وعليها منقوش كذا وكذا؟ قال: نعم. قال: قد أوصلها الله تعالى إليّ، والله نعم الكفيل. فقال: فكيف وصلت إليك؟ قال: لما مضى الأجل المقدر بيني وبينك بقيت أتردد إلى البحر لأجدك أو أجد من يخبرني عنك فوفقت ذات يوم إلى الشط وإذا بالخشبة قد استندت إليّ، ولم أر لها طالباً، فأخذها الغلام ليجعلها حطاً، فلما كسرها وجد ما فيها، فأخبرني بذلك فقرأت ما عليها، فعلمت أنّ الله تعالى حقق أملك لما توكلت عليه حق التوكل.

وقيل إن سبب بداية ذي النون المصري رحمه الله تعالى أنه طيراً أعمى بعيداً عن الماء والمرعى فبينما هو يتفكر في أمر ذلك الطائر فإذا هو بسكرجتين برزتا من الأرض إحداهما ذهب، والأخرى فضة، هذه فيها ماء، والأخرى فيها قمح فلفظ القمح وشرب الماء، ثم غاب بعد ذلك فذهل ذو النون وانقطع إلى الله تعالى من ذلك الوقت.

وحكي أن رجلاً من أبناء الناس كانت له يد في صناعة الصباغة، وكان أوحده أهل زمانه فساء حاله وافتقر بعد غناه، ففكرة الإقامة في بلده فانتقل إلى بلد آخر فسأل عن سوق الصباغة فوجد مكاناً لمعلم السلطنة وتحت يده صنع

كثيرون يعملون الأشغال للسلطنة وله سعادة ظاهرة ما بين ممالك وخدم وقماش وغير ذلك فتوصل الصانع الغريب إلى أن بقي من أحد الصانع الذين في دكان هذا المعلم، وأقام يعمل عنده مدة وكلما فرغ النهار دفع له درهمين من فضة وتكون أجرة عمله تساوي عشرة دراهم فيكسب عليه ثمانية دراهم في كل يوم. فاتفق أن الملك طلب المعلم وناوله فردة سوار من ذهب مرصعة بفضوص في غاية من الحسن قد عملت في غير بلاده، كانت في يد إحدى محاضيه^(١) فانكسرت فقال له الحمها فأخذها المعلم وقد اضطرب عليه في عملها فلم يأخذها وأراها للصانع الذين عنده، وعند غيره فما قال له أحد إنه يقدر على عملها فإزداد المعلم لذلك غمًا ومضت مدة وهي عنده لا يعلم ما يصنع. فاشتد الملك على إحضارها وقال هذا المعلم نال من جهتنا هذه النعمة العظيمة، ولا يحسن أن يلحم سوارًا، فلما رأى الصانع الغريب شدة ما نال المعلم قال في نفسه: هذا وقت المروءة أعملها ولا أؤاخذ به بخله عليّ، وعدم إنصافه، ولعله يحسن إليّ بعد ذلك فحط يده في درج المعلم وأخذها وفك جواهرها وسبكها ثم صاغها كما كانت ونظم عليها جواهرها فعادت أجسن ما كانت فلما رآها المعلم فرح فرحاً شديداً ثم مضى بها إلى الملك، فلما رآها استحسنتها وادعى المعلم أنها صنعتها فأحسن إليه، وخلع عليه خلعة سنوية فجاء وجلس مكانه فبقي الصانع يرجو مكافأته عما عامله به، فما التفت إليه المعلم ولما كان النهار ما زاده على الدرهمين شيئاً. فما مضت إلا أيام قلائل وإذا الملك اختار أن يعمل زوجين أساور على تلك الصورة فطلب المعلم ورسم له بكل ما يحتاج إليه، وأكد عليه في تحسين الصنعة وسرعة العمل فجاء إلى الصانع وأخبره بما قال الملك فامثل مرسومه، ولم يزل منتصباً إلى أن عمل الزوجين وهو لا يزيد شيئاً على الدرهمين في كل يوم ولا يشكره ولا يعده بخير، ولا يتجمل معه فرأى المصلحة أن ينقش على زوج منهما أبياتاً يشرح فيها حاله ليقف عليها الملك فنقش في باطن إحداهما هذه الأبيات نقشاً خفيفاً يقول:

مصائبُ الدهرِ كُفِّي	إن لم تكفني ففني
خرجتُ أطلبُ رزقي	وجدتُ رزقي توفني
فلا برزقي أحظي	ولا بصنعة كفي
كم جاهل في الثريا	وعالم متخفي

قال: وعزم الصانع على أنه إن ظهرت الأبيات للمعلم فشرح له ما عنده وإن غم عليه ولم يرها كان سبب توصله إلى الملك ثم لفهما في قطن وناولهما للمعلم فرأى ظاهرهما ولم ير باطنهما لجهله بالصنعة ولما سبق له في القضاء فأخذها المعلم ومضى بهما فرحاً إلى الملك وقدمهما إليه فلم يشك الملك في أنهما صنعتها، فخلع عليه وشكره ثم جاء فجلس مكانه ولم يلتفت إلى الصانع وما زاده في آخر النهار شيئاً على الدرهمين، فلما كان اليوم الثاني خلا خاطر الملك فاستحضر الحظية التي عمل لها السوارين الذهب فحضرت وهما في يدها فأخذهما ليعيد نظره فيهما، وفي حسن صنعتها فقرأ الأبيات فتعجب وقال هذا شرح حال صانعهما والمعلم يكذب فغضب عند ذلك وأمر بإحضار المعلم فلما حضر قال له من عمل هذين السوارين قال: أنا أيها الملك قال فما سبب نقش هذه الأبيات قال لم يكن عليهما أبيات قال كذبت ثم أراه النقش وقال إن لم تصدقني الحق لأضربن عتقك فأصدقته الحق فأمر الملك بإحضار الصانع فلما حضر سأله عن حاله فحكى له قصته وما جرى له مع المعلم فرسم الملك بعزل المعلم وأن تسلب نعمته

(١) المحظية: الجارية المملوكة ذات المكانة.

وتعطى للصانع وأن يكون عوضاً عنه في الخدمة، ثم خلع عليه خلعة سنية وصار مقدماً سعيماً فلما نال هذه الدرجة وتمكن عند الملك تल्पف به حتى رضي عن المعلم الأول وصاراً شريكين ومكناً على ذلك إلى آخر العمر ورحم الله من قال:

إذ كان سعدُ المرءِ في الدهر مقبلاً تدانَتْ له الأشياءُ من كل جانبِ
وقال آخر:

ما سلمَ الله هو السالم ليس كما يزعم الزاعمُ
تجري المقاديرُ التي قدرت وأنفُ من لا يرتضي راغمُ
وقال كعب بن زهير:

لو كنت أعجبُ من شيء لأعجبنِي سعيُ الفتى وهو مخبوءٌ له القدرُ
يسعى الفتى لأمورٍ ليس يدركُها والنفسُ واحدةٌ والهَمُّ منتشرُ
والمرءُ ما عاشَ ممدودٌ له أملٌ لا ينتهي ذاك حتى ينتهي العمرُ

وروي في الإسرائيليات أن نبياً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مر بفخ منصوب، وإذا بطائر قريب منه فقال له الطائر: يا نبي الله هل رأيت أقل عقلاً ممن نصب هذا الفخ ليصيدني به، وأنا أنظر إليه. قال: فذهب عنه ذلك النبي عليه السلام ثم رجع وإذا بالطائر في الفخ، فقال له: عجباً لك ألت القاتل كذا وكذا أنفأ. فقال: يا نبي الله إذا جاء الحين لم يبق أذن ولا عين. ويروي أن رجلاً قال لبزرجهمر: تعالي نتناظر في القدر. قال: وما تصنع بالمناظرة؟ قال: رأيتُ شيئاً ظاهراً استدلت به على الباطن، رأيتُ جاهلاً مبروراً، وعالماً محروماً، فعلمت أن التدبير ليس للعباد. ولما قدم موسى بن نصير بعد فتح الأندلس على سليمان بن عبد الملك قال له يزيد بن المهلب: أنت أدهى الناس وأعلمهم فكيف طرحت نفسك في يد سليمان؟ فقال: إن الهدهد ينظر إلى الماء في الأرض على ألف قامة ويبصر القريب منه والبعيد على بعد في التخوم،^(١) ثم ينصب له أهل الصبي الفخ بالدودة، أو الحبة فلا يبصره حتى يقع فيه وأنشدوا في ذلك:

وإذا خشيَت من الأمور مقدرأ وفررتَ منه فنحوه تتوجَّه
وقال آخر:

أقامَ على المسيرِ وقد أنيختَ مطاياها وغرَّد حاديهاها
وقال أخافُ عاديةً الليالي على نفسي وأن ألقى رداها
مشيناها خطأ كُتبتَ علينا ومن كُبت عليه خطأ مشاها
ومن كانت مئيتُه بأرضٍ فليس يموت في أرض سواها

ولما قتل كسرى بزرجهمر وجد في منطقته كتاب فيه: إذا كان القضاء حقاً، فالحرص باطل. وإذا كان الغدر في الناس طباعاً فالثقة بكل أحد عجز وإذا كان الموت بكل أحد نازلاً فالطمأنينة إلى الدنيا حمق. وقال ابن عباس

(١) التخوم: الحد الفاصل بين أرضين وهي أيضاً المعالم التي يُهتدى بها في الطريق.

وجعفر بن محمد رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿وكان تحته كنز لهما﴾^(١) إنما كان الكنز لوحاً من ذهب مكتوب فيه بسم الله الرحمن الرحيم عجبت لمن يوقن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يوقن بالرزق كيف ينصب، وعجبت لمن يوقن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يوقن بالحساب كيف يغفل، وعجبت لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وحكى الطرطوشي رحمة الله تعالى في كتابه سراج الملوك قال: من عجيب ما اتفق بالاسكندرية أن رجلاً من خدم نائب الإسكندرية غاب عن خدمته أياماً، ففي بعض الأيام قبض عليه صاحب الشرطة وحمله إلى دار النائب فانفلت في بعض الطرق وترامى في بئر، والمدينة إذ ذاك مسرودة بسرداب يمشي الماشي فيه قائماً. فما زال الرجل يمشي إلى أن لاحت له بئر مضيئة فطلع منه فإذا البئر في دار النائب فلما طلع أمسكه النائب وأدبه فكان فيه المثل السائر: الفار من القضاء الغالب، كالمقلب في يد الطالب، وأنشدوا فيه:

فـالـوا تـقـيـمُ و قـد أحـا	ط بـك العـدوُ و لا تـفـرُ
لا نـلـتُ خـيـراً إن بـقـيـ	تُ و لا عـداني الـدـهـر شـرُ
إن كـنـتُ أعلـم أن غـيـ	رَ الله يـنـفـعُ أو يـضـرُ